الفصل الثامن

إنتشار الإسلام فى شرق أفريقية

كان العرب من معين وسبأ وحمير على اتصال دائم بساحل أفريقية الشرقى ، وكانوا يجلبون من تلك الأنحاء سلعا مهمة لعل أعظمها قيمة الذهب والعاج والرقيق . وقد أثبتت البحوث الحديثة أن العرب أدركوا منذ تلك العصور القديمة أهمية موقع زنزبار فاتخذوها مخزناً لسلعهم ومنها توغلوا فى داخل القارة إلى البحيرات الكبرى . ويستدل علماء الأجناس من ملامح السكان فى أقليم بحيرة فكتوريا على أن توغل العرب فى تلك الناحية حدث من زمن بعيد .

وجاء الإسلام فزاد هذا الاتصال بفضل هجرات متتابعة أهمها أن قيام الدولة العباسية أدى إلى نفور بنى أميه ومن يتصلون بهم من الإقامة قريباً من العباسيين . ففر عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس ، وآثر غيره انتجاع سقطرى بحيث يكون بعيداً عن متناول العباسيين . ولم يمض إلا زمن يسير حتى صارت هذه الجزيرة سوقا تجارية هامة سرعان ما اتصلت بشرق أفريقية

وتلا هذه الهجرة القرشية هجرة جاءت من جنوب بلاد العرب وأخرى من الجنوب الغربى لبلاد فارس وهاتان الهجرتان نزلتا بالساحل الشرقى من

أفريقية وتكونت على أثر نزولها سلطنات إسلامية صغيرة وعظم على أثر ذلك شأن مقدشو وممبسة وكلوة . وما زال النفوذ الإسلامى ينتشر حتى بلغ سُفاله قبيل إغارة البرتغال . و بقيت هذه المستعمرات العربية تقاتل البرتغال ما ينيف على ١٥٠ سنة . وانتهى هذا النضال بانتصار البرتغال بفضل سيادتهم البحرية فى تلك الجهات .

و إذ ذاك أبى العرب الخضوع لهؤلاء الأوربيين واحتمال استبدادهم وسوء إدارتهم ، فحمل كل منهم أهله وكل منقولاته واتجه إلى داخل القارة مؤثراً مواجهة الوحوش المفترسة والسكان المتربصين على احتمال الضيم .

واختلط هؤلاء المهاجرون بأهل البلاد وانتهز زعماء السكان وملوكهم وجود هؤلاء المتحضرين فى بلادهم فاتخذوا منهم مستشارين و إداريين كانوا دعاة للدين الإسلامى فى هدوء ورزانة فأضاءوا بذلك القارة المظلمة . وفى ذلك يقول السير توماس ارنولد : إن الشيخ المسلم يحيط به عدد من الاتباع أكثر ممن يحيطون بالمبشر المسيحى ؛ وذلك على الرغم من قلة مجهود المسلم .

أما البرتغاليون فسرعان ما نسوا أنهم كانوا دعاة المسيحية ، فانقلبوا حرباً على الأهلين وعاملوهم بالقسوة وعكفوا على تجارة الرقيق فانقضى عليهم قرنان من الزمان (سنة ١٥٠٣ — سنة ١٧٠٣) لم يعملوا شيئاً يذكر لمصلحة السكان ، كما يشهد بذلك الأوربيون أنفسهم إذ يقولون أنهم شجعوا تجارة الرقيق واسرفوا فى تقتيل الأهلين ونشروا شرب الخمر واخفقوا فى التبشير بالمسيحية .

ولما ضعف شأن البرتغال انقض عليهم سلطان مسقط بين ١٧٣٠ و ١٧٤٠ فانتزع منهم جزيرة زنزبار والساحل المواجه لها وما يليه جنوبا إلى رأس دلغادو . ويشهد الأوربيون بأن عودة زنزبار الى أيدى العرب جعلتها مفتاحا لداخل افريقية ، على حد قول أحدهم : « مهما تكن وجهتك فى داخل البلاد فلا بد من الابتداء من زنزبار » وعبر العرب عن ذلك بقولهم : « عند ما تزمر فى زنزبار ترقص كل أفريقية إلى البحيرات الكبرى » .

وإذا كان بعض هؤلاء المسلمين قد أعماهم الشره فاشتغلوا بتجارة الرقيق ، وبالتالى رغبوا عن نشر الإسلام لأنه يحرم بيع المسلم ، فقد وجد إلى جانب هؤلاء أناس متحمسون لدينهم ، جعلوا ينقذون الأهلين من الضلال بمزاملتهم بقصد تعديل طرق معيشتهم ، وتزوجوا منهم فرفعوا مستواهم الاجتماعى .

وتمكن بعض هؤلاء المتحمسين من الاتصال بملوك تلك البلاد واقنعوهم باتباع الشريعة الغراء بعد أن كانوا يسايرون أهواءهم الجامحة .

فلما تنبهت اوربا إلى حاجتها لمستعمرات فى افريقية وهبت تتنازع على اقتسامها فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين أنشأ الانجليز والألمان السكك الحديدية من دار السلام على الساحل إلى بحيرة تنجانيقا ومن ممبسة إلى السواحل الشرقية من بحيرة فكتوريا وبحيرة ابراهيم التى سميت بعد ذلك ببحيرة تشوجا . وكذلك عبدوا الطرق وسيروا البواخر فى الأنهار كلما أمكن ذلك . فاستغل العرب هذه الوسائل الحديثة للدخول فى قلب القارة واتخذ منهم الألمان والانجليز معلمين وموظفين وشرطة وجنداً إذ وجدوهم أصلح لذلك من الأهلين . وبلغ من تفضيل الانجليز فى كنيا للمسلمين أن كانوا يوزعون

المصاحف على الأهلين و يقاومون التبشير المسيحى لأ نه يفسد أخلاق السكان .
وأيقن الأهلون ان الانجليز يؤثرون المسلمين بالوظائف والكرامة فاقبلوا على الإسلام بحيث كانت قرى بأ كملها تعتنقه فى يوم واحد .

وفى سنه ١٨٦٠ قرر الانجليز فى نتال زراعة قصب السكر و بان لهم أنه لا يمكن استغلال مزارع القصب باستخدام عمال اور بيين بسبب ارتفاع أجورهم ، وأن العمال من أهل البلاد ليسوا من المهارة بحيث يقومون بهذه الزراعة ، وأنه لا يمكن تعليمهم هذه المهنة فقرروا استدعاء أناس من أهل الملايو وأهل الهند للنهوض بهذه الزراعةفى نتال ، يعملون بعقود لمدد محدودة ، على أن يعودوا لبلادهم عند انتهاء تلك العقود .

إلا أن هؤلاء العمال ما كادت تنتهى عقودهم حتى وجدوا أن من مصلحتهم البقاء بتلك البلاد فاستقروا بها على اعتبار أنهم مواطنون أحرار ؛ واحترفوا الأعمال التجارية والمهن الدقيقة وانتشروا فى اتحاد جنوب أفريقية وزاد عددهم أضعافاً مضاعفة بهجرات جديدة أ كثرها من الهند وغيرها من دول آسيا .

وهؤلاء المسلمون نشروا دينهم بين السكان الأصليين ، ورحب هؤلاء السكان بهذا الدين ، فأصبح فى المدن الكبيرة وفى القرى جماعات مهمة من المسلمين لا تفتأ تنشر الدعوة الإسلامية فى تعقل وهدوء مما حمل المبشرين المسيحيين على الشكوى منهم . وعبر عن ذلك المبشر الأمريكى زويمر بقوله : « إن مدينة الرأس بها مالا يقل عن ٢٣ مسجداً ، و إن الكتب الإسلامية ترجمت إلى لغة الزولو وغيرها من لغات السكان الأصليين . »